Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكرة مداها من الضيق والاتساع ، ولكل صورة طبيعتها من الظهور أو الضمور ، ومن القوة والضعف ، فقد تكون أشعة الإلهام كومضات البرق ، تتعاقب على الذهن بسرعة . وقد تكون عواطف النفس فاترة تجيش بالالم ، أو تضطرم باللذة ، وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب الصور للتعبير عنها ، وقد تكون المعانى رزينة بطبيعة موضوعها ، لتوخيها الإفادة أو الإقناع أو الشرح ، فتقتضى الأسلوب المرسل أو المفصل . أما إذا كانت الفكرة متشابكة الفروع فالأبلغ أن تفصل بالاستدارة . والاستدارة جملة متوسطة الطول ، تشتمل على فاتحة وخاتمة ، وتتألف من فواصل ترتبط بإحكام ؛ وتتساوى فى انتظام ، وتحمل كل فصلة من فواصل الفاتحة جزءاً من المعنى بحيث لايتم المراد إلا بذكر الجملة الأخيرة ، وهى الخاتمة . وبذلك يتم التلاؤم بين الألفاظ والأفكار وحالات النفس .

وإذا كان جمال الشكل وموقع اللفظ أو موسيقيته لايجحد أثرهما النسبى فى نجاح العمل الأدبى وقوة تأثيره ، كما رأينا فإن الوجود الذاتى للفظ لايتجاوز هذه الحدود ، وتبقى قيمته الكبرى فيما تضمنه من المعنى ، وما يؤديه من دلالة عليه ، ولا يقتصر المعنى الذى يؤديه اللفظ على الدلالة الوضعية ، أو المعنى المعجمى المأثور عن واضعى اللغة الأولين ، بل إنه يكتسب دلالات أخرى وظلالا لمعان اكتسبها فى استعماله وتداوله على ألسنة أصحاب اللغة والأدباء على مر الزمان « فكلما أمعنت الكلمة فى القدم ، أو كلما ازدادت الكلمة تداولا ، كانت أثقل شحنة بتجارب الناس فى حيواتهم ، أو بعبارة أخرى كانت أملأ بحياة الذين اتخذوها أداة للتعبير عما فى نفوسهم . هكذا تفعم اللفظة بالحياة كما عاشها الناس ، تتداولها الأجيال المتعاقبة ، فيقطر كل جيل فيها تجاربه الخاصة من حياته الخاصة ، وكأنما يتخذ من الفكرة الكامنة فى حنايا اللفظة مشجباً يعلق عليه هذه التجارب التى بثها إياها .

ويضرب « شارلتون » لذلك مثلا بكلمة « الجبال » التى كانت تعنى عند أهل القرن الثامن عشر من الإنجليز هضبة ناهدة على صدر الأرض ، يضطرب لها خط الأفق ، فيضطرب فى إثره قلب المسافر المسكين ، فلا يظل على بشره ورجائه ، إذ ربما اعترضته فى طريقه ، فالزمته أن يجاهد لاهثاً فى صعودها والهبوط منها .

---

(١) دفاع عن البلاغة للزيات ، وانظر كتابنا (البيان العربى) ٤٠٨ .